

الكتابة النسائية بين القبول والرفض

ط.د/ عياد نسيمه

جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس

يعد السرد من أهم المفاهيم التي شغلت تفكير الأدباء والنقاد المحدثين بالرغم من اختلاف مشاربهم الفكرية، وقد اشتمل السرد على جميع أنواع القصص كالملاحمة والسيرة والحكاية والقصة وصولاً إلى الرواية، هذه الأخيرة أحد الفنون الأدبية التي دخلتها المرأة لإثبات حضورها، لاعتبارات منها كون الرواية "ديوان العرب في الوقت الراهن، لما تتمتع به من قدرة على الإلمام بالمجتمع ومواكبة مستجدات العصر.

فالرواية هي الأكثر قدرة على تحري الرؤى العالم وآفاقه وتقدم تصور يقارب المعالجة وفق خطية فنية تمثل قمة العملية الإبداعية"¹. فالرواية تعتبر ديوان العرب في الوقت الراهن لما فيها من مواكبة العصر، والتعبير عن مشاكل المجتمع، هذه الأخيرة أصبحت ذات حضور أقوى بحضور العنصر النسوي، فالرواية النسوية أزالَت الهيمنة الذكورية لتفرض وجودها كعنصر فعال في هذا المجال.

إشكالية المصطلح (نسوي، نسائي، أنثوي):

ما تزال الكتابة النسوية أو الأدب النسوي تعترضه الفوضى المصطلحية من خلال تعدد التسميات كقولنا الأدب النسوي أو النسائي أو أدب المرأة، الأدب الأنثوي وغيرها من التسميات التي تمت بصلة أو بالأحرى ب المرأة أو بالكتابة النسوية. إلا أن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها هي الحضور القوي لهذا الإبداع الذي فرض نفسه على الساحة الأدبية في عصرنا بفعل كفاح المرأة واجتهادها في مجال الكتابة .

وأيا كانت التسمية "فقد دخل مصطلح الأدب النسوي حقل التداول الثقافي والنقد العربي في النصف الثاني من سبعينيات القرن العشرين، ولعبت الصحافة الأدبية دوراً هاماً في هذا المجال، إذ كانت أول من طرح مصطلح الأدب النسوي للتداول الأدبي"² ما جعل المصطلح يشير في دلالته إلى الأدب الذي تكتبه المرأة .

في بداية القرن الواحد والعشرين بدأ المصطلح يدخل حيز الدراسة بشكل أوسع و أشمل، وظهرت في الساحة الأدبية والنقدية دراسات وأبحاث عديدة، أخذت من الأدب الذي تنتجه المرأة موضوعاً للدراسة والنقد والتمحيص.

يُميز الناقد محمد معتصم بين الكتابة النسائية والكتابة النسوية، فالكتابة النسائية تدل على الكتابة التي تبدها المرأة عموماً، في حين تعد الكتابة النسوية بمثابة جزء من الأولى، وقد قدم حيال ذلك مفهوم مفاده أن "الكتابة النسوية ترتبط بنوع خاص من الكتابة، تلك التي تنبع من خلفية إيديولوجية، تنصب المرأة الكاتبة - وقد يكون الرجل الكاتب أيضاً - فيها نفسها مدافعا عن حقوق المرأة، كاشفة عن المواقف المعادية لها في ميادين مختلفة كالإيدان الاجتماعي، والسياسي والحقوق... وتندرج ضمن هذا النوع من الكتابة، الكتابة السيرية واليوميات، والتقارير الصحفية، والتحقيقات والاستجوابات، وبعض الروايات التي يكون قصدها ومغزاها مرتبطتين بالخلفية الإيديولوجية لحركة نسوية محلية أو دولية."³

فمصطلح النسائي يدخل ضمنه الكتابات التي تكتبها المرأة والرجل المطالبة بحقوق المرأة وقضاياها، والنسوية تعني المفهوم ذاته أي المدافعة والمطالبة بحقوق المرأة سواء أكان كاتبها رجلاً أم امرأة .

ومفهوم النسائية مفهوم شمولي، بمعنى أنه يضم أشكال وأساليب وأنواع من الكتابة عند المرأة، ولهذا كان من الضروري استخلاص وتوليد مفهوم جديد أدنى منه ويدل عليه، وهو مفهوم الكتابة النسوية .

يميز محمود طرشونة بين المصطلحات الثلاثة يقول: "هناك "الرواية النسوية" بكسر النون لأنها مشتقة من "نسوة" ويذكر (الأدب النسوي) الجامع بين الشعر والنثر وهو أدب ملتزم يحمل رسالة تتمثل في الدفاع عن حقوق المرأة، وقد يتجاوز المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة إلى إثبات التفوق والامتياز، وفيه لهجة نضالية في أسلوب خطابي يتصف في أغلب الأحيان بالتقريبية والتبسيط على حساب الفن وأدبية النصوص"⁴.

فالأدب النسوي عند طرشونة هو كل ما تكتبه المرأة من إبداعات، وهو أدب ملتزم صاحب قضية تتمثل في المطالبة بحقوق المرأة والتعبير عن واقعها ومعاناتها اليومية وآمالها وآلامها.

أما الناقدة العراقية نازك الأعرجي صرحت أن مصطلح (الأدب الأنثوي) يثير لديها "التوتر والنفور فالحديث عن المؤنث حسبها يثير الاضطراب والنفور لأنه يمس مواقع نعجز عن الإفصاح عنها، ونقاط ضعف تراكمت فوقها المقولات والمواقف اللفظية، ولأنه قبل ذلك يتطلب منا تحديد التساؤل تعليق المسلمات والبديهيات السائدة وهز الثوابت والجوامد"⁵.

فالمصطلح عندها مصدر قلق ونفور، وتدعو إلى استخدام مصطلح آخر هو (الكتابة النسوية) لأن هذا المصطلح "يقدم المرأة ولا إطار المحيط بها المادي والبشري والعربي و الاعتباري في حال حركة وجدل"⁶.

إن مصطلح الكتابة النسائية نجده عند بعض الناقداً مرادفاً لإبداع المرأة، وعليه فإن الأدب النسائي لا يعني بالضرورة أن المرأة كتبت، بل يعني أن موضوعه يخص المرأة وشؤونها، إذن "التجربة دائماً متغيرة حسب الزمان والمكان والطبقة الثقافية والجنس والخبرات الجانبية ولا يمكننا تجاهل هذه العوامل لنضع مجموعة أعمال في سلة واحدة ونطلق عليها "أدب نسائي"، وإلا سقطنا في المطلق مرة أخرى وشبكة الصور النمطية"⁷.

وعليه فعلى الرغم من أن المصطلحات (النسائي)، (النسوي)، (الأنثوي) تبدو للوهلة الأولى متقاربة، إلا أنها تتضمن فروقات تتراوح بين التمثيل البيولوجي، وتحديد الجنس الأنثوي، إلى الوعي الفكري المعرفي، لنستنتج في الأخير أن مصطلح الكتابة النسوية من المصطلحات النقدية المتشعبة و قد تعددت الجهود النقدية لتحديد هذا المفهوم وتسييجه، فمنهم من قال بالنسوية، ومنهم من وصف إبداع المرأة بالكتابة الأنثوية، ومنهم من قال بالكتابة النسائية...

ونستنتج في الأخير أن المصطلح (نسوي) لأنه يعبر عن رؤية واضحة وواعية للمجتمع، فاستخدام كلمة نسوي في وصف أدب المرأة أدق في التعبير وأدق في المعنى من كلمة نسائي، لأن كلمة نساء تشمل جمهور النساء برمتها، لكننا نجد قلة من النساء تمارس الأدب، وعليه فإن كلمة (نسوة) وهي من أوزان جمع القلة لكلمة امرأة من وزن (فعلة)، أدق لأنها تدل على قلة من النساء.

الموقف الراض لمصطلح الأدب النسوي :

لقد تباينت الآراء في تبني مصطلح الأدب النسوي ورفضه، "ففي مطلع الخمسينات تعالت صيحات نسوية مشحونة بالاحتجاج والثورة والرفض متمثلة في روايات ليلي بعلبكي، وكوليت خوري، وغادة السمان، وليمي عسران وغيرهن"⁸. حيث مالت معظم هذه الصيحات للانتقاص من كفاءاتهن وإقصاءهن من ساحة الأدب.

يرفض أنصار هذا الموقف تقسيم الأدب، مهما كانت التسمية التي تطلق على المنجز الأدبي للمرأة، لاعتبارات أن الأدب عام لا يتجزأ، ولا جنس للكتابة فلا يمكن أن نقول أدب رجالي وأدب نسوي.

حيث الناقد بوشوشة بن جمعة أن التمييز بين أدب نسائي وأدب رجالي على أساس الجنس مرفوض من قبل جل من كتب في الموضوع، فلا معنى لقولنا أن هذه الرواية أو تلك نسائية لمجرد أن مؤلفتها امرأة، إذ ليس من المناسب أن نصنف الأدب على أساس الذكورة و الأنوثة إلا إذا اقتنعنا بوجود خصوصية ما تبرر إفراد الأدب النسائي بالنظر والدرس⁹.

إذ يؤكد على أن الأدب لا يمكن أن يكون نسائيا و لا ذكوريا .

إن رفض هذا المصطلح نابع من فكرة أن "الأدب واحد لا يقبل التصنيف بناء على معايير خارجية غريبة كليا عن كينونته، وأن ما يلاحظ عادة من اختلافات فنية وفكرية بين بعض الكتابات لا يعدو أن يكون مجرد تلوينات طبيعية، تشهد في مجموعها على دينامية هذا المجال الإبداعي وحيويته، ولا يمكن اتخاذها أبدا ذريعة لأية نذجة، غالبا ما تتجاوز وظيفتها الوصفية لتكتسب دلالة معمارية إضافية تفقدها كل قيمة نقدية حقيقية وتحولها لمجرد تصنيف تراتبي مرفوض"¹⁰.

عبد العالي بو طيب وضع أن المرأة عندما كتبت لم تمارس الإبداع ليوصف بالنسائية، إنما أبدعت تجاوبا مع موهبتها التي صقلت بالتعليم والممارسة والتجربة الإبداعية ولتصور واقعها بمنظارها الخاص، لا أن تكون منظارا فقط ينظر من خلاله .

ولقد انطلقت بعض المواقف الراضية لهذا الأدب من خلفيات إيديولوجية مبنية على جنس المرأة، وحاملة لقضيتها في طرح همومها وانشغالاتها، "وهذا من الإشكالات الكبرى التي لا تغيب بحال عن الذهن، حين يلحظ إطلاق بعضهم نسائي ونسوي ومؤنث على ما كتبت المرأة منذ بدئه في دراسته واكتفائه بعدها بتجميع ما اعتبره أدلة على أنوثة النص مبوبا تأويله وتحليله في ضوء جنس المبدعة وتكوينها البيولوجي أساسا، وبالتالي فهي تفصيلها مسبقا وتعطيها حكما بالنقص والقصور، وتهمشها وتعدمها في المهده، هي آراء ترى إبداع المرأة مبعثرا بين همومها ومشاغلاها الأنثوية التافهة والهامشية، وقد غاب على الرجل صاحب هذه الآراء بأن قهر المرأة المثقفة اجتماعيا ونفسيا بشكل أساسي، هو الذي أبشع الكتابة بتجارب حياتية مليئة بوعي المرأة المأسوي"¹¹.

وهذه زهرة الجلاصي تتخذ الموقف ذاته، أي رفض المصطلح الأدب النسوي، لأنه ليس له قاعدة علمية، الأمر الذي جعل الآراء في نظرها تنطلق من الخلفية البيولوجية ذات النظرة الإيديولوجية المتشعبة بنظرة دونية تتميز بالإقصاء، يدرج ما تكتبه المرأة في نوع أدبي تابع، فكأنه يحتل منزلة الهامش من الأدب الكامل، فقد أثار مصطلح أدب نسائي، وما يزال سجلات وصلت إلى حد الاجترار والاستنزاف¹².

ترفض الكاتبة مصطلح الأدب النسائي لأنه مصطلح يحيل مباشرة إلى جنس الكاتبة فهو يحمل صفو بيولوجية، وبالتالي يدفع بوسم نصها بالدونية. حيث أكدت أكثر من كاتبة وإصرار شديد أن فعل الكتابة واحد لا يتجزأ، وعندما يدعوها داعي الكتابة تنسى أنها امرأة.

الموقف المؤيد لمصطلح الأدب النسوي :

هناك من يؤيد فكرة الإبداع النسوي ويقر بتميزه كأدب بذاته ذا خصوصية وحضور مميز ،فأصحاب هذا الموقف يقرون بوجود أدب نسوي، وباستقلاليته عن الأدب الذي يكتبه الرجل، فهاهو توفيق بكار يرى بأننا أصبحنا مع هذا الإبداع النسوي ننظر إلى أنفسنا و مجتمعاتنا وتاريخنا بعينين اثنتين لا بعين واحدة، ونعيها بعقلين، وندركها بحسن.¹³ فوجود إبداع نسوي إضافة متميزة تضاف إلى الإبداع الرجالي، لأننا يلقي أضواء جديدة على واقعنا .

وهو ما عبرت عنه حمدة خيس بقولها: "إن أدب المرأة - واقعا ومصطلحا- ينبغي أن يكون مصدر اعتزاز المرأة والمجتمع والنقاد، إذ أنه يصحح مفهوم الأدب النسائي الذي يؤكد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق ذاته، كما أنه يضيف إلى الأدب السائد نكهة مغايرة و لغة وليدة ويعنيه ويتكامل معه، وهو أيضا خطاب نهوض وتنوير"¹⁴. فهي تؤكد أن هذا الأدب يتوجب أن يكون محل فخر للمجتمع .

لقد أصبح الإبداع النسوي يطرح الكثير من الأفكار، فيستوجب دائما المواصلة والحفاظ عليه . وبين القبول والرفض "ثمة كاتبات وقفن في موقف وسط، لم يحسمن أمرهن بالنسبة لرفض المصطلح أو قبوله، ويقررن بخصوصية التجربة التاريخية والاجتماعية التي عاشتها المرأة، وطبعها بطابع خاص وفي الوقت نفسه يرفض أن تكون هذه الخصوصية نابعة من خصوصية طبيعية تلازم المرأة"¹⁵.

فكل ما تكتبه المرأة له خصوصية اجتماعية وتاريخية تميزها عن الآخر الذكوري وبهذا قد أزلت هيمنتها، وفرضت وجودها كعنصر فعال في هذا المجال.

وعليه فإن الكتابة النسوية تخضع لسلطان التشظي، والبحث عن الفردوس المفقود نتيجة الصراع الكثيف بين الأنا والأنثوية والآخر الذكوري، الباسط سطوته على الفضاء الإبداعي، الأمر الذي استدعى الدخول إلى عوالم الكتابة من فجوة ضيقة ازدادت اتساعا مع الوقت لتبشر بميلاد كتابات نسائية تحمل من الخصوصية ما يميّزها.

وأمام هذه المواقف المتباينة نجد أصحاب موقف ثالث، حاولوا الحديث عن الإبداع دون الدخول في إشكالات التأيد والمعارضة و من جملتهم حسن المودن الذي ذكر لنا أهم المواقف الثلاثة ، إلا أنه يميل إلى الموقف الثالث- على حد تعبيره - قائلا: "ونحن نميل إلى هذا الموقف، لأنه يستند إلى فلسفة الاختلاف، معتبرا أن من حق المرأة أن تعبر حقيقة عن ما تريد أن تعنيه، وأن تقول ما يتعلق بشعورها وتجربتها التي تختلف جسديا وثقافيا ونفسيا ولغويا عن هوية الرجل وتجربته، وأن تسمع صوتها المسلوب والمكبوت والمستلب داخل لغة ليست لغتها"¹⁶.

موقف ينظر إلى الإبداع باعتباره إبداعا قدم الجديد دون الدخول في إشكالات العصر، ومتبنيه يحرصون على إخراجها من دائرة التشابكات، فكل واحد يكتب بطريقته دون أن يراقب الآخر، أو يحاول أن ينقص من قيمة إبداع الآخر.

إن تعدد الآراء والمواقف لا ينفي أهمية كتابة المرأة عبر عصور مضت، والإبداعات التي تقدمها حاليا، وما ستقدمه مستقبلا.

الهوامش:

1- الأخضر السائح، سرد المرأة وفعل الكتابة ، مختارات دراسة نقدية في السرد وآليات البناء، دار التنوير، د.ط، 2008م الجزائر، ص 13.

2- مفيد نجم، الأدب النسوي ، إشكالية المصطلح، مجلة علامات، المغرب، ج 57، م 15، سبتمبر 2005، ص 162.

- 3- محمد معتصم، بناء الحكاية والشخصية في الخطاب الروائي النسائي العربي، منشورات دار الأمان، ط1، الرباط، 2007، ص ص7-8 .
- 4- محمد طرشونة، الرواية النسائية في تونس ، مركز النشر الجامعي، ط1، تونس، 2003، ص 10.
- 5- نازك الأعرجي، صوت الأنثى، دراسات في الكتابة النسوية العربية، دار الأهالي للطباعة والنشر، ط1، دمشق ، 1997، ص6.
- 6- مفيد نجم، الأدب النسوي إشكالية المصطلح، ص ص 164 - 165.
- 7- شيرين أبو النجا، عاطفة الاختلاف، قراءات في كتابات نسوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر، 1998، ص46.
- 8- رشيدة بن مسعود، المرأة والكتابة، سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، إفريقيا الشرق، ط 2، بيروت، لبنان، 2002، ص75.
- 9- ينظر، بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية المغاربية أسئلة الإبداع وملامح الخصوصية الرواية العربية النسائية، الملتقى الثالث للمبدعات العرييات، دار كتابات، تونس، ط1، 1999، ص93.
- 10- عبد العالي بوطيب، الكتابة النسائية الذات والجسد، ضمن كتاب الكتابة النسائية التخيل والتلقي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط يوليو 2006، ص 8.
- 11- حسين المناصرة، النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 2007، ص75.
- 12- ينظر، زهرة جلاصي، النص المؤنث، دار سراس، ط1، تونس، ص10.
- 13- ينظر، محمد طرشونة، إشكالية الخصوصية في الرواية النسائية بتونس، ص11.
- 14- حمدة خميس، في مفهوم الأدب النسائي، جريدة الجزيرة، العدد 893، ت 1997/2/2، ص ص264-265.
- 15- هويدا صالح، نقد الخطاب المفارق، السرد النسوي بين النظرية والتطبيق، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2014، ص118.
- 16- حسن مودن ، الكتابة و المرأة ، أفروديت ، ص45.